الدكتور علي الوردي

الأخلاق



الضَّائِع مِن الموارد الخلقِيَّة

الأخلاق

الضائع من الموارد الخلقية

* اسم الكتاب: الأخلاق: الضائع من الموارد الخلقية
* تأليف: د. علي الوردي
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق، 2007.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.
* صورة الغلاف: لوحة فنية.
* الناشر: شركة الورّاق للنشر المحدودة.

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 1 900700 74 3

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

الدكتور علي الوردي

الأخلاق

الضَّائِع مِن الموارِد الخلقيَّة

المحتويات

تصدير

لقد كان الوردي من أوائل العلماء الذين قاموا بدراسة المجتمع العراقي دراسة علمية تحليلية تاريخية، وكان من ثمار هذه الدراسة أنه اكتشف أمراض المجتمع العراقي ومشاكله، ودعا إلى معالجة هذه الأمراض والمشاكل.

إنّ المعالجة لهذه الأمراض والمشاكل تتم حسب الحالة التي يعاني منها المجتمع. وفيما يخص الصراع الطائفي في العراق قال: إن الحل هو في النظام الديمقراطي..

إن المطّلع الجيد على كتب الوردي والدارس لها لم يفاجأ بالوضع الحالي القائم في العراق من صراعات متعددة الأوجه فنرى هذه الصراعات تأخذ تارةً صراعاً حضرياً ـ بدوياً أو طائفياً أو سياسياً.

إنّ أشكال الصراعات العديدة في هذه المرحلة لا تخرج عن سياق الصراع على السلطة يقول العلامة الوردي: إنّ التراث الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق يتميز بأمرين هما: التعصّب والمد البدوي وهما في الحقيقة وجهان لشيء واحد، فالطائفية ليست ديناً إنما هي نوع من الانتماء القبلي

إلى مذهب أو شخص معين، والفرد الطائفي حين يتعصب لمذهبه لا يهتم بما في المذهب من مبادىء خلقية أو روحية فذلك أمر خارج عن نطاق تفكيره، وكل ما يهتم به ما يوحي به التعصب من ولاء لجماعته وعدائه لغيرهم، إنه بعبارة أخرى ينظر إلى طائفته كما ينظر البدوي إلى قبيلته.

ويقول الوردي أيضاً:

لا ننكر أن هذا الذي حدث في العراق (خلال الحرب العالمية الأولى) قد يحدث في أي بلد آخر حين تمرّ به فترة يخلو فيها من السلطة الحكومية، غير أن الذي حدث في العراق يختلف عمّا يحدث في غيره من حيث الطابع البدوي الذي يتميز به، فالنهابون في العراق يوجهون معظم هجومهم على الدوائر الحكومية قبل غيرها. وكأنهم يريدون الانتقام منها، وقد يشترك في النهب أشخاص محترمون إذ هم لا يختلفون في ذلك عن المبتذلين والصعاليك وهذا يدل على طابع القيم الاجتماعية السائدة فيهم.

العرب يكتشفون الوردي:

لقد صُدم المثقفون العرب من نوع وحدّة الصراع القائم في العراق منذ أربع سنوات ونيف فأخذ قسمٌ كبيرٌ يبحث عن أسباب ومسببات هذا الصراع فكانت كتب الوردي المعين لهم في فهم الواقع العراقي المعقد.

الناشر

الضائع من الموارد الخلقية[1]

إنَّ هذا الموضوع الذي أحاول البحث فيه اليوم يختلف في طبيعته عن المواضيع الأُخرى التي دعتكم هيئة الدراسات العربية إلى الاستماع إليها. إنَّ موضوعنا يتصل بالأخلاق. والأخلاق كما تعلمون من الأُمور النسبية التي يختلف النَّاس في تقديرها. وهي ليست إذن كالموارد الصحية أو التقنية أو الاقتصادية من حيث اتفاق الناس في الغالب على ما يستحسن منها وما يستقبح.

فلقد اتفق الناس مثلاً على أنَّ الأمراض بشتى أنواعها شر يصيب الإنسان، وإنَّ السلامة منها خير يسعى الإنسان نحوه ويحاول الحصول عليه بكل جهده. ولكنَّهم لم ينظروا في الأخلاق بمثل هذه

(1) نشر هذا البحث في مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأميركية في بيروت، السنة 11 ج2، حزيران 1958.

النظرة الثابتة. قد يصح القول بأنَّ كل ثقافة بشرية تتخذ لنفسها نظاماً في الأخلاق خاصاً بها، وهي تنظر إلى أخلاق الآخرين بشيء من الريبة والاحتقار.

ولهذا وجب علينا قبل البحث في الضائع من الأخلاق العربية أن نعرف ما هو الأساس الذي تبني عليه البحث. إنَّنا بعبارة أُخرى يجب أن نعرف ما هي الأخلاق قبل أن نعرف ما هو الضائع منها.

وفي سبيل اتخاذ ركزية استند عليها في طرق هذا الموضوع سأحاول المقارنة بين أخلاق البداوة والحضارة. ولي سبب يدعوني إلى ذلك، حيث وجدت أنَّ المجتمع العربي قد اختص من بين كثير من المجتمعات الأُخرى بكونه شديد الصلة بالبداوة من ناحية وكونه موطن أعرق الحضارات في التاريخ من الناحية الأُخرى.

ويؤسفني في هذا الصدد أن أرى بعض الباحثين العرب لا يهتمون بهذه الناحية من نواحي مجتمعهم اهتماماً كافياً. فقد وجدتهم يدرسون مجتمعهم على نمط ما اعتاد الغربيون أن يدرسوا مجتمعاتهم به، مع العلم أنَّ المجتمع العربي يختلف عن المجتمعات

الغربية في تراثه الثقافي والحضاري. وهو إذن في حاجة إلى منهج للدراسة خاص به.

يجب أن لا ننسى قبل كل شيء أنَّ البلاد العربية تقع في أعظم منطقة صحراوية في العالم. سرحوا النظر فيها من مراكش غرباً حتى العراق شرقاً تجدوا البادية شاملة لها متغلغلة فيها إلى درجة تلفت النظر. وقد امتلأ تاريخ هذه البلاد بالموجات البشرية التي كانت ترمي البداوة بها إلى السهول الخصيبة منها جيلاً بعد جيل.

ليس من الجائز لنا إذن أن نهمل أثر هذه الصحراء في تكوين المجتمع العربي. إنَّنا لا نلوم الغربيين إذا هملوا أثر القيم البدوية في مجتمعاتهم. ذلك أنَّ بلادهم خالية من الصحراء تقريباً وليس فيها تراث بدوي يتغلغل في أعماق النُّفوس منها. **أمَّا نحن العرب فالقيم البدوية تكاد تؤلف جزءاً لا يُستهان به من نظامنا الاجتماعي. وفي رأيي إنَّنا لا نستطيع أن نفهم الأخلاق العربية في وضعها الراهن قبل أن ندرس أخلاق أجدادنا البدو وكيف كانوا ينظرون في شؤون الحياة.**

شخصية المجتمع البدوي:

دعونا الآن ندرس المجتمع البدوي. وهنا أقول بأنَّ الأبحاث الاجتماعية الحديثة ترى بأنَّ أي مجتمع من المجتمعات البشرية هو كالفرد يملك شخصية خاصة به. وهذه الشخصية المجتمعية تعرف في الاصطلاح العلمي باسم «Culture».

وإذا درسنا البداوة في هذا الضوء خرجنا من ذلك بنتيجة قد تختلف عن النتائج التي توصل إليها السواح أو المستشرقون الذين درسوا البداوة في عصرنا الحاضر. ومشكلة هؤلاء الدارسين أنَّهم كانوا يصفون الصفات التي اكتشفوها في المجتمع البدوي جنباً إلى جنب من غير أن يتحروا عن العامل المشترك الذي يختفي وراءها. إنَّهم بعبارة أُخرى كانوا كمن يدرس أحد الأفراد فيذكر صفاته المختلفة دون أن يذكر طابع الشخصية الذي يؤلف من تلك الصفات نظاماً حركياً متماسكاً.

تقول الأستاذة روث بندكت في كتابها المعروف (Patterns of Culure) إنَّ الصفات في أي مجتمع هي كالعناصر التي يتألف منها المركب الكيماوي إذ هي

تتفاعل وتترابط فيما بينها بحيث يظهر من جرَّاء ذلك شيء جديد يختلف في صفاته عن صفات العناصر المكونة له. وهذا هو ما أطلقنا عليه اسم الشخصية المجتمعية أو الـ«Culure».

وهنا نسأل: ما هو الأساس الذي تقوم عليه شخصية المجتمع البدوي؟ للجواب على ذلك **ينبغي أن نقارن بين الشخصية البدوية والشخصية المناقضة لها أي الشخصية الحضرية. ومن الممكن القول في هذه المناسبة إنَّ الشخصية الحضرية تقوم على «الانتاج»، بينما تقوم الشخصية البدوية على «الاستحواذ». وشتَّان بين أخلاق الانتاج وأخلاق الاستحواذ كما تعلمون.**

نحن نعرف بوجه عام أنَّ الفرد الحضري العريق في حضارته يصعب عليه أن يعيش من غير مهنة أو نوع من الانتاج يحاول الحذق فيه. وقد يكون الانتاج مادياً أو يكون فكرياً، إنَّما هو على أيٍّ حال براعة تنال بالجهد والمران في معظم الأحيان. وكلَّما حسنت براعة الفرد الحضري في مهنة التي اختص بها راج سوقه وارتفع مستوى معاشه بالنسبة إلى أقرانه الذين يعيون في مثل ظروفه.

أمَّا البدوي فله شأن آخر. أن يعيش في صحراء لا تعرف من شؤون الانتاج إلَّا قليلاً، وليس فيها سوى العشب ينبت هنا وهناك بأمر الله. قال القرآن يخاطب سكان الصحراء: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذّاريَات: 22]. وهو يشير بذلك إلى المطر الذي ينزل من السماء حيث ينبت به العشب الأخضر وتكثر الغدران وتمتلىء الآبار وعند هذا ينعم البدو بالشبع والري دون أن يحسبو لغدهم حساباً.

ومشكلة البدو الكبرى أنَّهم لا يستطيعون أن يقتسموا مواطن العشب والماء فيما بينهم أو يسجلوا حقوقهم فيها على صكوك كما يفعلوا المتحضرون في أموالهم. فمواطن العشب والماء قليلة بالنسبة إلى عددهم المتنامي. وهم مضطرون إذن أن يتنافسوا ويتنازعوا عليها مجد السيف. وليس في البادية مكان للضعيف الذي يدعو إلى مبادىء العدالة والمساواة. يقول الشاعر البدوي القديم:

ونشرب أن وردنا الماء صفواً
ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

وجاء في أمثالهم الدارجة: «الحق بالسيف والعاجز يريد شهود». وجاء كذلك قولهم: «الحلال ما

حل باليد». والذي يجلس إليهم يستمع إلى أحاديثهم بجد إنَّهم يقيسون الرجولة الكاملة بقياس الغلبة والاستحواذ. وهم إذ يمدحون رجلاً يقولون عنه أنَّه «سبع» يأخذ حقه بذراعه ولا يقدر أحد عليه. ومن أكبر العار على أحدهم أن يُقال عنه أنَّه صانع أو حائك. فذلك يعني في نظرهم أنَّه ضعيف يحصل على قوته بعرق جبينه كالنساء ولا يحصل عليه بحد السيف. ومن هنا أطلقوا على العمل اليدوي اسم «المهنة»، والمهنة مشتقة من المهانة كما لا يخفى.

مقاييس الحضارة:

إنَّ الحضري العريق في حضارته لا يستسيغ هذه القيم البدوية. فهو قد نشأ منذ طفولته على قيم أُخرى، وهو يقدر الناس بمقدار براعتهم في مهنهم وما يربحون منها. وهو يعد البدو مجرمين سلابين لا يؤمن جانبهم. إنَّه ينسى أنَّ البدو ينظرون إليه بعين الاحتقار كما ينظر هو إليهم. فهو في نظرهم جبان ذليل لا كرامة له ولا حق له في الحياة.

زار الدكتور فاضل الجمالي قبيلة عنزة في صحراء الشام ودهش حين رآهم يؤمنون بالله ويصلون له

ويصومون بينما هم لا يتوانون عن النهب والغزو عندما تحين الفرصة المناسبة. فسألهم عن هذا التناقض فيهم. فكان جوابهم أنَّهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير في هذا السؤال من قبل.

مشكلة الدكتور الفاضل أنَّه يقيسهم بمقياس الحضارة التي نشأ فيها. وهو ينسى أنَّ لهم مقاييسهم الخلقية الخاصة بهم. فهم يتخيلون الله مثلهم يحترم الرجل الشجاع القادر على النهب. وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّهم يتصدقون على أرواح أمواتهم من المال الذي ينهبونه في غاراتهم المجيدة. وهم يعدون «غارة الضحى» أجل الغارات وأقربها إلى الله، لأنَّها تجري في وضح النَّهار وتدلُّ على جرأة القائم بها وبسالته.

يغضب البدوي إذا قيل له: «حرمك الله من غارة الضحى!» وقد سأل الأستاذ عباس العزاوي أحد البدو قائلاً له: أصحيح أنَّكم تنفقون الخيرات على موتاكم ممَّا تكسبون من غارة الضحى؟ ولماذا يغضب البدوي من القول له: حرمك الله من غارة الضحى؟» فأجاب البدوي قائلاً: «وهل أحل من غارة الضحى، فهي على وجه نهار. وكيف تحرمني من مثل هذه الغارة؟!».

ولا يجوز لنا أن نلوم البدو على أخلاقهم هذه. فالأخلاق في الواقع ليست سوى صورة من صور تكيف الإنسان لمحيطه. ولو نشأ أحدنا منذ طفولته بين البدو لما استطاع أن يتخذ لنفسه أخلاقاً أُخرى. وقد أخطأ المفكرون والقدماء الذين كانوا يستنبطون قواعد الأخلاق من عقولهم المجردة ثم يفرضونها على الناس.

إنَّ الإنسان لا يفهم المثل العليا التي جاء بها الفلاسفة الحالمون، إنَّما هو يجري في سلوكه على نمط ما يحترمه المجتمع عليه: ولو احترم المجتمع فرداً لصار جميع الناس يحاولون أن يكونوا قروداً والعياذ بالله!

غلطة بعض المستشرقين:

وجد بعض المستشرقين الذين درسوا البدو أنَّ الرجل منهم يحب المال حباً جماً ولا يقدر غير الدرهم والدينار أمَّا المعنويات فلا قيمة لها في نظره. ومن هؤلاء المستشرقين الأستاذ أوليري، فقد قال في كتابه: (Arabia before Mohammed) إنَّ البدوي يعد نموذجاً للنزعة المادية حيث يتملك الطمع مشاعره ولس لديه مجال

للخيال والعواطف والدِّين (وهو ينظر إلى الأُمور نظرة مادية وضيعة ولا يقومها إلَّا بما تنتج من نفع عاجل).

إنِّي أعتقد أنَّ هذا الرأي الذي جاء به أوليري لا يخلو من غلو. فهو ينظر إلى الحقيقة الاجتماعية من جانب واحد ويهمل الجوانب الأُخرى منها. الواقع إنَّنا في الوقت الذي نرى البدوي فيه اعتدائياً نهاباً نجده كذلك كريماً شهماً أبياً وفياً إلى درجة لا يستطيع الحضري أن يدانيه فيها.

إنَّ البدوي يطلب المال حقاً. ولكنَّه لا يطلب المال من أجل المال. فالمال عنده من علامات الرجولة والغلبة. وهو لا يُبالي أن يسخو بالمال حالما يصل إلى يده. ومن هنا جاء وصف البدوي بأنَّه «نهاب وهاب». إنَّه نهاب عندما يكون النهب رمزاً للقوَّة، وهو وهاب عندما يكون الوهب رمزاً لها كذلك. ولذلك تجده من أحرص الناس على الفلس الواحد حين يؤخذ الفلس منه اغتصاباً وعنوة بينما هو من أسخى الناس حين يُستغاث به أو يؤتى إلى مضيفه أو يطلب منه العون. وهو قد يبذل في سبيل ذلك حياته علاوة على مال.

والبدوي كذلك صادق صريح لا يحب الرياء والمراوغة أو الختل. ولعلَّه يعد المراوغة بشتى أنواعها ضعفاً لا يلائم طبيعة الشجعان الغالبين. إنَّه يقتلك أو ينهبك ولكنَّه لا يداجيك أو يخون أمانتك أو يأكل دينك. وقد يأتي من أقصى البادية ليؤدِّي لك ما عليه من دين في الوقت الذي ربَّما كنت قد نسيته أو يئست منه لطول المدة. وهو لا يقسم بالله كذباً ولو كان في هذا القسم منجاة له من التهلكة. فإذا أقسم لك مثلاً بـ«العود والرب المعبود وسليمان بن داود» كان ذلك منه حجَّة لا تمارى. وهو في الأغلب صادق فيما أقسم عليه مخلص فيه.

عندما يتحضر البدوي:

تلك هي شخصية البدوي بما فيها من محاسن ومساوىء وهي قائمة كلها على أساس الغلبة والاستحواذ والشجاعة. ولي أن أقول إنَّ هذه الشخصية تظل محافظة على محاسنها ومساوئها ما دامت باقية في الصحراء. وهنا نسأل: هل في ميسور البدوي أن يظل قابعاً في صحرائه القاحلة زمناً طويلاً؟ إنَّه شجاع باسل يحمل السيف البتَّار، ويرى في

الأمصار المجاورة أُناساً متحضرين قد شبعوا من الخام والطعام وهم في الوقت ذاته جبناء مخنثون. فهل يتركهم يرتعون في النعيم الذي لا حق لهم به، أم يغزوهم وينهب أموالهم؟

شهد التاريخ سلسلة طويلة من الغزوات البدوية التي اجتاحت الأمصار المجاورة للصحراء. ولا شأن لنا بهذه الغزوات من الناحية السياسية، فأمرها معروف، ولها الباحثون المختصون فيها. إنَّما نريد هنا أن نبحث فيها من الناحية الاجتماعية ولا سيَّما ما له من صلة بموضوع الأخلاق الذي نحن فيه.

يذهب ابن خلدون إلى القول بأنَّ البدو يكاد لا يستولون على الأمصار المتحضرة ويعتادون على ترفها وملذَّاتها حتى ينسوا بالتدريج خصالهم القديمة ويأخذون باكتساب الخصال الحضرية. وابن خلدون يقصد من ذلك أنَّهم ينسون خصالهم البدوية جميعاً بما فيها من محاسن ومساوىء.

وإنِّي أكاد أعتقد إنَّ هذا الرأي الذي جاء به ابن خلدون صحيح في نطاق العصور القديمة التي عاش فيها ابن خلدون أو قرأ تاريخها، أمَّا في العصور

الأخيرة فقد لا يصدق هذا الرأي كل الصدق. ولي استدراك عليه لا يخلو من صواب.

وفي رأيي أنَّ العصور الأخيرة تختلف عمَّا سبق في طبيعة السلاح الذي كان مستخدماً في القتال بين البدو والحضر. فقد كان الناس يستخدمون السيف قديماً كما هو معروف. ولهذا كان البدوي منتصراً في معظم الأحيان التي يغزو فيها الأمصار المتحضرة. إنَّ البدو أبرع في قتال السيف من المتحضرين، ومعنى هذا أنَّهم كانوا يستولون على الأمصار ويؤسِّسون فيها الممالك حيث يؤلفون فيها الطبقة الحاكمة. أمَّا في العصور الأخيرة فقد ذهب زمان السيف وحلّت محله الأسلحة النارية. والبدو لا يستطيعون أن ينتجوا هذه الأسلحة أو يحذقوا فنها كما يحذقه المتحضرون، ولهذا شعروا بالعجز عن اجتياح الأمصار المجاورة على منوال ما كانوا يفعلون قديماً. فهم لا يكادون يتحرشون بالحضر حتى يجدوا المدافع الضخمة قد صوبت عليهم وقذفتهم بشواظ من نار. لقد أدركوا أنَّ بسالتهم القديمة لا تجديهم كثيراً إزاء فوهات المدافع وطلقات النَّار.

وقد لاحظت من دراستي لتاريخ العراق في العهد

العثماني أنَّ القبائل البدوية أخذت تأتي إلى العراق عن طريق التغلغل التدريجي بدلاً من طريق الفتح الحربي. وقد حاولت بعض القبائل بتأثير المذهب الوهابي أن تغزو العراق بحد السيف غير مرة فباءت بالفشل. واستطاعت الحكومة العثمانية على ضعفها أن تردهم على أعقابهم بعد المذبحة التي قاموا بها في كربلاء في أواخر القرن الثامن عشر. واستطاع محمد علي بعد ذلك أن يهاجم عاصمتهم في صميم الصحراء ويضرب حركتهم ضربة قاصمة وتلك كانت معركة لم تشهد جزيرة العرب لها مثيلاً في تاريخها الطويل حيث لم يتمكن من قبل أي جيش حضري أن يغزو الصحراء أو يتغلغل فيها فاتحاً.

خلاصة ما أردت قوله في هذا الصدد أنَّ الصراع بين البدو والحضر قد اتخذ في العصور القديمة شكلاً جديداً إذ صارت قبائل البدو تتسلل إلى الأمصار المجاورة خلسة فتستقر فيها دون أن تحاول الاستيلاء عليها.

أخلاق العشائر العراقية:

أريد أن أتحول الآن إلى دراسة أخلاق العشائر

بعد تحضرها في العصور الأخيرة. وممَّا تجدر الإشارة إليه بأنَّ معظم دراستي في هذا الصدد قد تركزت حول عشائر العراق. ومعنى هذا أنَّ بحثي سيكون جزئياً غير شامل. ولكنني أرجو أن يكون على أيٍّ حال ذا نفع لإخواني الباحثين في البلاد العربية الأُخرى، إذ قد يستطيعون به مقارنة وضع العراق من الناحية الخلقية بوضع غيره من البلاد، ولعلَّهم يجدون بينهما شيئاً من الشبخ أو الخلاف على أيٍّ حال.

والأمر الذي أود أنَّ ألفت أنظاركم إليه هو أنَّ القبائل البدوية التي استقرت في العراق في العصور الأخيرة، لا سيَّما في العهد العثماني، أخذت تفقد كثيراً من محاسنها القديمة، بينما هي ظلت محافظة على المساوىء. **إنَّها فقدت الصدق والأمانة والصراحة مثلاً ولكنَّها بقيت متمسكة بالعصبية القبلية والثأر، والاعتداد بالغلبة والفخار بالغزو والنهب.**

وهذا أمر غريب يلفت النظر. فما هو السبب الذي جعل المحاسن البدوية تضعف تجاه الظروف الحضرية الجديدة في الوقت الذي تظل فيه المساوىء صامدة. لا بدَّ أن يكون وراء ذلك عامل اجتماعي

يؤدِّي إلى هذه النتيجة التي لا تخلوا من ضياع خلقي كبير، فما هو؟

الذي أميل إليه ويميل إليه بعض زملائي من الباحثين العراقيين هو أنَّ نظام الحكم الذي كان يسود العراق في العهد الأخير له يد في هذا الضياع الخلقي.

وهنا يجب أن لا ننسى أنَّ الحكومة العثمانية لم تكن حكومة بالمعنى الصحيح. فهي لم تكن تعنى بالمحافظة على الأمن والنظام في البلاد، كما هو شأن الحكومات الراقية. ولم يكن همها في حكم الناس إلَّا أن تجبي منهم الضرائب والمغارم وليفعلوا بعد ذلك بأنفسهم ما يشاؤون.

وكانت سياسة الحكومة تجاه العشائر أنَّها تتركهم يتقاتلون ويتناهبون فيما بينهم والمعروف عنها أنَّها كانت تشجع فيهم هذا القتال والتناهب أحياناً في سبيل إضعافهم على طريقة «فرق تسد».

وممَّا زاد في حدة هذا النزاع العشائري أنَّ الأراضي في العراق كانت ولا تزال دائمة التبدل من حيث جودة انتاجها وسهولة ريها. فكثيراً ما تكون

البقعة من الأرض جيدة في أول أمرها ثم تسوء بعد ترسُّب الأملاح فيها. فتضطر العشيرة إلى التحول منها إلى أرض أُخرى. ولا يتم هذا طبعاً إلّا بعد قتال مرير، حيث تستحوذ العشيرة القوية على الأراضي الصالحة بعد أن تطرد عنها أصحابها الأولين.

ولم يعرف العراق حتى عهد متأخر نظاماً ثابتاً لمسح الأراضي أو تسجيل الحقوق فيها. فكانت العشائر إذن تتقاتل على الأراضي الجيدة في العراق كما كان الأسلاف يتقاتلون في الصحراء على العشب والماء.

والذي يدرس تاريخ أية عشيرة عراقية يجد أنَّها لم تستقر في أرض معينة مدة طويلة. فهي أمَّا طاردة أو مطرودة تبعاً لقوتها وعصبيتها وميلها إلى الغزو والاستحواذ وهذا يؤدِّي بأبناء العشيرة طبعاً إلى الاحتفاظ بعاداتهم القديمة التي تساعدهم على البقاء في هذا المعترك العنيف.

وفي الوقت الذي نجد فيه العشائر العراقية تتقاتل وتتناهب فيما بينها وتحس بالعزة المتطرفة إزاء من يريد انتهاك حرمتها، نراها تتخذ إزاء الحكومة موقف الذل والمسكنة. ولي أن أقول بأنَّ الفرد العشائري

أصبح من جرَّاء ذلك ذا وجهين. فهو أبي باسل يشعر بكرامته وعزته عندما يلتقي بأمثاله من أبناء العشائر. وتجده عند ذاك من أكثر الناس غضباً وعصبية وحرصاً على أخذ الثأر. إنَّما هو لا يكاد يلمح جباة الحكومة أو جلاوزتها قادمين عليه حتى يتقمص شخصية أُخرى حيث يمسي بها خنوعاً يتحمل الصفعات والإهانات دون أن يثور أو يحقد.

أخذ الفرد العشائري يفقد بالتدريج صفات الصراحة والإباء والأمانة وغيرها من الصفات التي كانت معروفة عند أجداده في الصحراء. إنَّه يرى جباة الحكومة واقفين له بالمرصاد يحصون عليه أغنامه وحاصلاته الزراعية، وهو مضطر أن يكذب عليهم ويحلف بالله وبجميع أنبيائه وأوليائه زوراً لكي يدرأ عنه قسطاً من الضريبة المفروضة عليه. ولو أنَّه اتبع سبيل الصدق في معاملة الحكومة لما بقي لديه ما يكفيه ويكفي أطفاله طعاماً ولباساً.

من الأحاديث المروية عن النبي محمد إنَّه مر ذات يوم ببعض دور الأنصار في المدينة فوجد فيها محراثاً فقال: «ما دخلت هذه دار قوم إلَّا دخلهم

الذل». وقد حار المحدثون في تفسير هذا الحديث. وحاول ابن خلدون تفسيره بقوله إنَّ الذين يمتهنون الزراعة يقعون تحت وطأة القهر من الحكَّام وفرض الضرائب والمغارم عليهم، وهذا يؤدِّي بهم إلى اعتياد الذل وما يتبعه من خلق المكر والخديعة.

واعتقد إنَّ هذا الحديث ينطبق على العشائر العراقية انطباقاً كبيراً. فهم قد وقعوا تحت وطأة الحكومة العثمانية زمناً طويلاً وتعلموا من جرَّاء ذلك أن يراوغوا ويكذبوا وأن يكونوا أولي شخصيتين، يواجهون بإحداها جلاوزة الحكومة، ويواجهون بالأُخرى أقرانهم من أبناء العشائر.

وأستطيع أن أقول بأنَّ العشائر العراقية لم تغير من أخلاقها هذه بعد قيام الحكم الوطني في العراق. وممَّا يؤسف له أنَّ الحكومة الوطنية الحاضرة قامت على أنقاض الحكومة البائدة وأعيد استخدام الموظفين القدامى فيها على نطاق واسع. فأصبح الفرد العشائري لا يجد فرقاً كبيراً بين الماضي والحاضر.

وممَّا زاد في الطين بلَّة أنَّ الحكومة الوطنية فرضت على أبناء العشائر نظام التجنيد الإجباري بعدما

كانوا معفيين منه في العهد العثماني. وبدأ الفرد العشائري يشهد ضباط التجنيد قادمين عليه بالإضافة إلى جباة الضرائب فصار يستعيذ بالله منهما ومن كل موظف ترسله الحكومة إليه. إنَّ العشائر اليوم تخاف من كل أفندي ومن كل من يتصل بالأفندي بصلة قريبة أو بعيدة. فهي قد اعتادت أن لا ترى الأفندي إلَّا في الشر. ولذا فهي لا تقدر على مصارحته أو الصدق معه في شيء ولو كان الصدق نافعاً لها.

حدث لي مرة أن ذهبت مع جماعة من الطلاب إلى قرية ريفية في سبيل أن ندرس أحوالها الاجتماعية فظن أهل القرية إنَّنا جواسيس أرسلتنا الحكومة لتحري أخبارهم وإيقاع الشر بهم. وكانت المراوغة واضحة في أجوبتهم. وهم لا يصدقون بنا ولو أقسمنا بالإيمان المغلظة لهم. واليمين لا فائدة منه في نظرهم إذ هم قد اعتادوا كما قلنا الحلف بالله وبجميع أنبيائه وأوليائه كذباً عند الحاجة. ولا يقتصر هذا الأمر على الفلاحين وحدهم، إنَّما هو شائع بين سكان المدن لا سيَّما الأميين منهم. وهذا هو السبب الذي جعل الإحصاءات التي تقوم بها الحكومة أو أية لجنة من الخبراء مغلوطة لا يمكن الاعتماد عليها.

ومن المفارقات التي يتفكه الناس بالحديث عنها في هذا الشأن أنَّ نفوس العراق قد يبلغ عددها العشرة ملايين مثلاً عندما يكون هناك توزيع للسكر أو القماش بالبطاقات. ولكن هذا العدد قد ينخفض إلى الثلاثة ملايين تقريباً عندما يسجل الناس في سبيل التجنيد الإجباري. ومعنى هذا أنَّ الناس يكذبون بالزائدة تارة وبالناقص تارة أُخرى. أمَّا الرقم الصحيح فلا يعلمه إلَّا الله العلي الخبير!

أثر الاقطاع في الأخلاق:

وبعد أن تحدثنا عن أثر الحكومة في تفكيك الأخلاق لدى العشائر العراقية، ننتقل إلى أثر الاقطاع فيها. ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ أمر الاقطاع بدأ يستفحل في العراق أخيراً وصار له من الأثر في تفكيك الأخلاق ما يناهز أثر الحكومة أن لم يفقه أحياناً.

ويجوز لي أن أقول بأنَّ الاقطاع في العراق حديث النشأة. فهو لم يكن في العهد العثماني على الحال التي نشهدها اليوم. والسر في ذلك هو ما قامت به الحكومة الحاضرة من مسح الأراضي وتسجيل

الحقوق فيها. وليست أنكر بأنَّ الحكومة أرادت بهذا المسح والتسجيل خيراً، ولكنَّه انقلب إلى شر من بعض النواحي.

كان شيخ العشيرة في الماضي زعيماً لقومه يقودهم في الحرب ويرعى شؤونهم في السلم. إنَّه كان كما يقول علماء الاجتماع متبوعاً لا مسيطراً. ومشيخته مستمدة من طاعة العشيرة له واحترامها إيَّاه. فإذا ظلم قومه أو استغلهم في مصلحته الخاصة نفروا منه واتبعوا أحد منافسيه من إخوته أو أبناء عمه. والشيخ إذن مضطر أن يكون حسن السيرة لكي يحتفظ بزعامته في عشيرته.

ولم يكن للشيخ من حق في نتاج الأرض إلَّا ما يمكنه من القيام بواجبات الزعامة المتعارف عليها. وقد يصح القول إنَّ أبناء العشيرة كانوا يستثمرون الأرض على أساس تعاوني تحت زعامة الشيخ، وهم يشعرون بأنَّهم شركاء في الأرض غير مأجورين. وإلى هذا أشار المستر كوك في كتابه «التحدي والاستجابة في الشرق الأوسط» حيث قال بأنَّ شيوخ العشائر كانوا في العهد الماضي يقومون بوظيفة الأوصياء المشرفين

على الأراضي المزروعة بشكل تعاوني والخاضعة لحيازة العشيرة المشتركة. . .

أمَّا الآن بعد أن مسحت الأراضي وسجلت بأسماء الشيوخ فقد تبدل الحال تبدلاً كبيراً. أخذ الشيخ يشعر بأنَّ الأرض أصبحت ملكاً خاصاً له، وهو قادر على استغلالها والتمتع بثمراتها ما دامت الحكومة راضية عنه. ومن هنا صار يترك أرضه بيد وكلائه ثم يذهب إلى العاصمة يسكن فيها ويتزلف إلى حكَّامها، وقد يذهب في المساء إلى الملاهي ليبذل على غانياتها ما كافح الفلاحون في جمعه طيلة العام.

إنَّ الشيخ صار بعبارة أُخرى بمثابة السيد الإقطاعي الغائب عن أرضه، وبعدت الشقة بينه وبين أتباعه. فلقد أهمل وظيفته الاجتماعية القديمة في القبيلة، ولعلَّه أخذ يشمئز من زيارة قريته أو مقابلة القذرين من سكانها. إنَّه اعتاد على حياة الترف والبذخ في المدن ولم يهن عليه أن يسكن القرية الوضيعة التي كان يألفها المرحوم أبوه. . .

واتخذ بعض الشيوخ لأنفسهم جلاوزة يسوسون رعاياهم ويجيبون منهم المغارم على شكل لم يعهده

الريف العراقي من قبل. وهؤلاء الجلاوزة العشائريون يُعرفون بأسماء مختلفة حسب المناطق التي يعيشون فيها. ففي منطقة العمارة مثلاً يطلق عليهم اسم «الحوشيه» وفي الفرات الأوسط يعرفون باسم «الصبيان»، وفي المنتفق يسمون بـ«الغلمان»... وأمسى الفلاح يعاني منهم أشد ممَّا يعاني من جلاوزة الحكومة وجباتها. فهم قادرون على تعذيبه أو حبسه أو قتله إذا امتنع عن أداء ما يطلب منه. وليس هناك من قانون يضبط سلوكهم تجاهه سوى إرادة الشيخ. وإذا كان للشيخ في ملاهي العاصمة غانية تستنزف ماله وقعت وطأة هذا العشق الخبيث على عاتق الفلاح.

لا حاجة بنا إلى القول بأنَّ هذا الوضع يؤدِّي إلى كثير من التفسخ في أخلاق الفلاح العراقي. إنَّه مضطر أن يتظاهر أمام الجلاوزة بالمسكنة والبراءة، ولكنَّه في أعماق نفسه يضمر شيئاً آخر. فلقد سرق قسطاً من الانتاج قبل مجيئهم حتى إذا جاؤوه أخذ يقسم بالله وبجميع القديسين على أنَّه لم يسرق ولن يسرق أبداً.

من النادر جداً أن نجد فلاحاً عراقياً غير سارق،

ومن النادر كذلك أن نجد فلاحاً لا يحلف بالإيمان المغلظة في سبيل البرهنة على براءته من السرقة.

إنَّنا نسميها سرقة وهو يسميها حقاً مشروعاً. ولا لوم عليه في ذلك. فهو يريد أن يعيش، وإذا لم يلجأ إلى السرقة مات هو وأطفاله من الجوع.

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أنَّ «سيداً» من أولاد الرسول امتلك أرضاً وجمع الفلاحين للعمل فيها. وأخذ الفلاحون يخونونه ويسرقون منه كدأبهم مع الآخرين. واكتشف السيد خيانتهم فدعا الله بأن ينزل عليهم العقاب الشديد. وشاءت المصادفة أن يموت كبيرهم في اليوم التالي. فهرب الفلاحون جميعاً من أرض هذا السيد الذي يستجيب الله لدعائه عاجلاً. وشاع خبره بين العشائر فلم يجرأ أحد منهم أن يعمل معه في زراعة الأرض. واضطر السيد أخيراً إلى ترك أرضه وإلى اتخاذ وسيلة للعيش أُخرى. أدرك أنَّه يستطيع أن يكون «قديساً» بين أبناء العشائر ولكنَّه لا يستطيع أن يكون صاحب أرض يعمل فيها الفلاحون. فالفلاحون غير قادرين على زراعة أرض من غير أن يسرقوا من انتاجها شيئاً.

وهنا ينبغي أن نذكر أنَّ طبيعة السرقة لدى الفلاح العراقي تختلف من تلك التي اعتاد عليها جده البدوي في الصحراء. فالبدوي يسرق بحد السيف، وهو لا يحب أن يسرق عن طريق الخيانة والختل، إذ إنَّ ذلك في نظره ديدن الضعفاء الجبناء. أمَّا الفلاح فالسيف لا يجديه شيئاً. ولا بدَّ له إذن من اتخاذ طريق الخفاء والكذب في السرقة إذا أراد أن يعيش.

أثر المرابين في الأخلاق:

وبعد الاقطاع يأتي المرابون. وهؤلاء منتشرون بين العشائر العراقية على نطاق واسع. فأينما تجولنا في الأسواق الريفية وجدنا أصحاب الحوانيت فيه يعتمدون على الربا الفاحش في مقايضاتهم مع الفلاحين.

وقد ورث الفلاح العراقي من جده البدوي صفة تجعله يفكر في يومه ولا يحسب حساب غده. إنَّه لا يزال يعد الاهتمام بشؤون الغد دليلاً على ضعف الإنسان وعلى قلَّة ثقته بشجاعته وقوَّة سيفه. ولهذا أصبح شعاره «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب». وتراه يذهب إلى أصحاب الحوانيت يشتري

منهم بالدين كل ما يحتاج إليه. وهم يستغلون تلك الصفة فيه فيفرضون عليه الأسعار كما يشتهون، حتى إذا حل موعد الوفاء وجد نفسه عاجزاً عن الأداء فيعيد تسجيل الدين عليه بعد إضافة الرباء عليه. ويتراكم المبلغ عليه مرة بعد مرة حتى يصبح في النهاية إضعاف ما كان عليه في أول الأمر.

يروي أحد الثقاة أنَّ فلاحاً في الفرات الأوسط استدان من أحد المرابين مبلغاً ضئيلاً ليشتري بها ثلاث دجاجات في سبيل أن يذبحها لضيف نزل عنده. وصار المبلغ يتراكم عليه مرة بعد مرة حتى اضطر الفلاح أخيراً أن يبيع ثوراً لدفع ثمن الدجاجات الثلاث.

ويحدث من أمثال هذه القصة في الريف العراقي عددٌ لا يحصى. وكلها تدلُّ على مدى الضغط الذي يرزح الفلاح العراقي تحت وطأته من قبل الدائنين والمرابين. ومن الممكن القول إنَّ ذلك يؤدِّي إلى خلق عقدة نفسية في الفلاح تجاه كل وعد يعد به أو دين يستدينه. وهو مجبور أن يتخلى عن خلق الوفاء الذي اشتهر به جده البدوي.

ومن المعروف عن أهل الريف في العراق أنَّهم من أكثر الناس مماطلة وتسويفاً في أداء الديون على خلاف ما هو معروف عن بدو الصحراء. وكثيراً ما نراهم ينكثون بعهودهم أو ينكرون ديونهم كلَّما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وممَّا ساعد على استفحال هذه العقدة فيهم أنَّهم ينظرون إلى كل صاحب حانوت من أهل السوق نظرة احتقار وزراية، وكأنَّهم يعدونه رجلاً سافلاً لا كرامة له ولا شهامة. ولهذا فهم لا يجدون ضيراً في النكاية والعبث به.

وصاحب الحانوت يرد لهم الصاع صاعين. ولا يتردد عن إقامة الدعوى عليهم في المحاكم وتسليط سيف القانون عليهم. وتصبح الحرب بينه وبينهم سجالاً. فهم يماطلونه ويتهربون منه، وهو يركض وراءهم يحمل ورقة الحجز أو يرسل عليهم الجلاوزة...

من الأمثال الشائعة في الريف العراقي قولهم «الدين رزق». وأحسب في هذا القول إشارة إلى أنَّهم يستسهلون أخذ الدين ويستصعبون وفاءه. فالدين رزق

ساقه الله إليهم. وهو قد أصبح ملكاً لهم وليس من الهين عليهم أن يرجعوه من تلقاء أنفسهم. وهم في الوقت ذاته يشعرون بالغبن حين يأكل أحد الناس ديناً لهم عليه.

حدثني صديق انَّه كان ذات يوم في أحد المجالس الريفية يستمع إلى أحاديث القوم. وجرى بينهم حديث رجل منهم فأخذوا يمدحونه قائلين بأنَّه رجل «سبع» يستطيع أن يأخذ حقه من غيره بالقوة، بينما لا يستطيع أحد أن يأخذ منه الحق الواجب عليه.

يخيل لي أنَّ العلاقة بين الدائن والمدين صارت تعد في الريف كالعلاقة بين الغالب والمغلوب في الصحراء، حيث يختزي الرجل أن يكون مغلوباً ويفخر أن يكون غالباً. ومن دواعي الرجولة في نظره أن يكون قوياً في أخذ الدين الذي له وفي الامتناع عن أداء الذي عليه.

وقد لاحظت أنَّ هذه الصفة قد انتقلت عن طريق العدوى إلى بعض سكان المدينة، لا سيَّما أولئك الذين هم من أصل ريفي أو بدوي. فتجد أحدهم يبذل كثيراً من ماله على الولائم ومواطن الكرم المألوفة

بينما هو يستصعب أداء الدين القليل الذي عليه. وهو قد ينافس أقرانه على الدفع في باب المقهى أو المطعم ثم يخاصم الحمال والبقال على فلسين استحقا عليه.

دافع الربح والأخلاق:

أشار الدكتور متى عقراوي في كتابه «العراق الحديث» إلى أنَّ ما يعرف لدى الغربيين بدافع الربح قد صار يسيطر على أخلاق العشائر العراقية، وقد أدَّى ذلك بهم إلى تفسخ أخلاقهم حيث أخذوا يتعاطون الخداع والمواربة والكذب في سبيل الربح.

وفي رأيي أنَّ هذا التفسخ الخلقي لم ينشأ فيهم بدافع الربح وحده، إنَّما هو يرجع أيضاً إلى ما ورثوا من البداوة من احتقار للمهنة والعمل البدوي.

المعروف في الريف العراقي أنَّ كثيراً من أبناء العشائر يستنكفون من القيام بكل عمل يؤدِّي بهم إلى البيع والشراء. فهم مثلاً يمتنعون عن زراعة الخضر أو تربية الجاموس أو صيد السمك بالشبكة. إنَّهم يعلمون بأنَّ هذه الأعمال تؤدِّي بهم إلى امتهان البقالة. والبقال بينهم محتقر غاية الاحتقار، إذ هو في نظرهم

ناقص الرجولة. وهم لذلك لا يجالسونه ولا يزوجونه من بناتهم أو يتزوجون من بناته.

رأيت ذات مرة في إحدى القرى العراقية رجلاً من أبناء العشائر يحمل شيئاً من الخضر ليبيعه في القرية، فأخذ الناس يسخرون منه ويطلقون عليه لقب «خنيث» ولم يجد الرجل مناصاً من الهرب تجنباً للعار. وقد سأل الدكتور شاكر سليم أحد الوجهاء في قرية الجبايش عن السبب الذي جعلهم يحتقرون زراع الخضر فقال بما معناه: إنَّ هذا الرجل يحمل بضاعته بين الناس من أجل بيعها وهذا عيب!

وهم يحتقرون الحائك كما يحتقرن البقال. سئل أحدهم عن سر احتقارهم للحياكة فأجاب بأنَّ الحياكة منذ قديم الزمان سرقوا أقراط الحسين وشهدوا على مريم العذراء زوراً وبهتاناً.

أرجح الظن أنَّ الحاكة لم يفعلوا هذا ولا ذاك. كل ما فعلوه أنَّهم عاشوا بين قوم يكرهون العمل اليدوي والمهنة التجارية بشتى أنواعها.

وهنا نقف قليلاً لنتساءل عن هذه القيم كيف تستطيع أن تصمد إزاء الظروف الحضرية الجديدة التي

أخذت تسود الريف العراقي شيئاً فشيئاً؟ وهل يستطيع أبناء العشائر أن يمتنعوا عن احتراف التجارة أو الأعمال اليدوية في الوقت الذي أمسوا فيه في ضيق اقتصادي قاهر؟

لا ننكر أنَّ كثيراً من أهل الريف ظلوا متمسكين بقيمهم القديمة على الرغم ممَّا يعانون من فقر وحرمان. وتراهم يصبرون على الضيق ويقاسون شظف العيش دون أن يتنازلوا إلى تعاطي المهن المحتقرة. ولكن هؤلاء بدأوا يقلون شيئاً فشيئاً بتأثير الظروف الحضرية التي أخذت تحيط بهم وتضيق عليهم الخناق.

إنَّ الإنسان بوجه عام يحب أن يكون محترماً بين قومه وهو يفضل أن يكون فقيراً محترماً على أن يكون غنياً محتقراً. ولكن هذا له حد يقف عنده. والحاجة الاقتصادية قد تدفع الإنسان أحياناً إلى تحطيم القيود والسدود. وقد حدث هذا فعلاً بين أهل الريف العراقي، فصاروا يستهينون بقيمهم القديمة تدريجاً وشرعوا يحترفون الأعمال المربحة على الرغم من حقارتها الاجتماعية. إنَّهم بعبارة أُخرى صاروا

يفضلون المال على الجاه. وهذا يؤدِّي بطبيعته إلى شيوع شيء من الاستهتار الخلقي فيهم كما لا يخفى.

يُقال في علم النفس إنَّ الإنسان إذا اجترأ على اقتراف الحرام مرة، سهل عليه أن يقترفه مرة ثانية وثالثة. وهذا هو ما يجري عند بعض أهل الريف، لا سيَّما أولئك الذين أخذوا في الآونة الأخيرة يهاجرون المدن، وهم اليوم كثيرون.

لقد تذوق هؤلاء طعم الحرام ووجدوا فيه لذة. وأقصد بالحرام الخروج على القيم الموروثة. وكل ربح يجنونه من ذلك يدفعهم إلى التمادي فيه، حتى ينتهي بهم المطاف أخيراً إلى قلَّة المبالاة بجميع القيم، القديمة منها والجديدة. وقد يصدق عليهم قول القائل: إنَّهم ضيعوا المشيتين!

لقد أخذ دافع الربح يسيطر على سلوكهم. ولكنَّهم يفهمونه على خلاف ما يفهمه التاجر في البلاد المتمدنة: فالتاجر المتمدن يقيم تجارته على أساس إرضاء الزبون. وهو يسير في ذلك على المبدأ القائل: «الزبون على حق دائماً»، إذ هو يدرك أنَّ نجاح تجارته مستمد من رضا الزبائن عنه ومن حسن سمعته بينهم.

أمَّا عند أصحابنا فدافع الربح يحفزهم إلى غش الزبون واستغلاله دون اهتمام بما يأتي به الغد منه. إنَّهم ينظرون إلى الزبون كما كان أجدادهم البدو ينظرون إلى القرين المبارز. ويجب أن لا ننسى أنَّ الزبون قد يكون مثلهم في هذا الخلق. ولهذا تتخذ المساومة وبينهم وبينه صورة المبارزة والمصاولة حيث يحاول كل فريق أن يخرج من الصفعة غالباً ويتألم إذا خرج منها مغلوباً.

والذي يتجول في الأسواق العراقية بجد هذه العبارة مكتوبة على بعض حوانيتها «المباع غير مرجوع والدين ممنوع والعتب مرفوع، والرِّزق على الله الكريم!».

ولست أدري كيف يمكن أن يكون الله كريماً على رجل لا يبيع بالدين ولا يرجع ما يُباع ثم لا يقبل العتب علاوة على ذلك.

إنَّ هذه العبارة تذكرنا بالمفهوم البدوي في أمر الرِّزق، فالرِّزق يأتي من السماء ولا أهمية بعد ذلك أن يرضى الزبائن عنك أو يغضبون. وليس من النادر في الأسواق العراقية أن يقع الشجار بين البائع

والمشتري. فالبائع الغالب لا يحب أن يتنازل عن ربح اكتسبه بسيف المساومة، وكذلك لا يحب المشتري المغلوب أن يظل مغلوباً. وقد ينتهي الأمر بينهما إلى الصفعات واللكمات أحياناً مع الأسف الشديد.

ولا يقتصر أثر هذا الخلق على مجال البيع والشراء وحده، بل يتعداه أيضاً في بعض الأحيان إلى مجال المهن اليدوية. فأنت إذ تستأجر صاحب مهنة للقيام بعمل ما ثم تغفل عنه تراه قد تكاسل في عمله أو حاول الغش فيه. والظاهر أنَّ نزعة المغالبة التي ورثتها من البداوة لا تتركه يعمل كما تقتضي مصلحته الدائمة أن يعمل. وهو لا يبالي بعدئذٍ أن يأتي بأغلظ الإيمان ليبرهن لك بأنَّه كان في عمله أميناً والله شاهد على ما يقول!

الضائع من أخلاق المدن:

كان حديثي السابق يدور في معظمه حول الضائع من أخلاق الريف في العراق، وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ أهل الريف هناك يؤلفون أكثرية السكان. ومن الممكن القول إنَّ حوالى الستين بالمئة من سكان العراق يعيشون في الريف أو يتصلون به على وجه من الوجوه.

بقي علينا أن نتحدث عن الضائع من أخلاق أهل المدن. ولكي نفهم ذلك يجب أن نرجع بأبصارنا إلى العهد العثماني، وهو العهد الذي كان العراق رازحاً تحت وطأته حتى الحرب العالمية الأولى، ولا يزال كثير من أهل العراق يعيشون فيه بذكرياتهم وما ورثوا منه من قيم اجتماعية.

وموضوع البحث في أحوال المدن العراقية في العهد العثماني موضوع طويل معقد لا مجال الآن للإسهاب فيه. يكفي هنا أن نقول بأنَّ أهل المدن يومذاك لم يكونوا مطمئنين إلى مقدرة الحكومة على صيانة أرواحهم وأموالهم، فاضطروا من جرَّاء ذلك إلى اتخاذ نوع من التكتل القبلي فيما بينهم ليدرأوا به عن أنفسهم بعض شرور النهب والقتل اللذين كانا شائعين في ذلك العهد. ومن هنا أصبحت كل محلة في المدينة كأنَّها قبيلة لها شيخها الخاص بها ونخوتها وتاريخها المملوء بمفاخر الرجولة والبطولة.

ومر زمن على العراق كان القتال فيه ينشب بين محلات المدينة كما كان ينشب بين عشائر الريف أو قبائل الصحراء. وإذا قتل من إحدى المحلات شخص

على يد أحد من محلة أُخرى قامت المحلة تطالب بثأره أو تحتكم فيه إلى أحد الخبراء في العرف العشائري.

وتحولت النخوة العشائرية في المدينة إلى نخوة محلية. فكان الناس ينادون ابن محلتهم «ابن طرفنا». والمفروض في الرجل أن يدافع عن «ابن طرفه» أو يثأر له سواءاً كان ظالماً أو مظلوماً.

وكانت التربية تؤكد على هذه النعرة المحلية في المدن. فكان الأطفال يمارسون العصبية المحلية أثناء لهوهم في الأزقة. وأعظم لهو عندهم أن يحارب أطفال المحلة أطفال المحلات الأُخرى ويكاسروهم. ويدور حديث الأطفال عادة حول البطولات التي كسبتها محلتهم تجاه غيرها. ومن الصعب على طفل أن يذهب إلى محلة أُخرى من غير حماية، إذ ليس من النادر أن يستضعفه الأطفال هناك ويهاجموه. وقد يؤلف الأطفال فيما بينهم عصابة يهاجمون بها البساتين ليسرقوا منها الفواكه. وهم يجدون لذة كبيرة في السرق، إذ هي تدلُّ في نظرهم على البطولة. وهم يحتقرون الطفل الذي لا يسرق ولا يعتدي. فهو

«مخنث» أو «مكفخ» وقد يقع تحت وطأة الأقوياء منهم فيذلونه أو يستغلونه أو يلوطون به.

وإذا كبر هؤلاء الأطفال وبلغوا مبلغ الرجال ظلوا ينظرون إلى الحياة بمنظار القوَّة والضعف أو بمنظار الرجلوة والخنوثة. وترى الناس عند ذاك يحترمون الرجل المعتدي الجبَّار الذي يسطو على البيوت ويسفك الدماء ويقضي وقتاً طويلاً في السجن.

وكان في كل محلة رجال جديرون بلقب البطولة. والمحلة تعتز بهم وتعدهم من مستلزمات فخارها إزاء المحلات الأُخرى. والبطل سفاك بالنسبة لأعدائه وأعداء محلته ولكنَّه في الوقت ذاته من أكثر الناس شهامة بالنسبة لأصحابه وأبناء محلته. ولا يكاد يستنجد به أحد حتى يسرع إلى نجدته بعد أن يفتل شاربه طبعاً.

أعرف رجلاً مسناً من أبناء الجيل الماضي. وطالما جلست إليه استمع إلى ما يحدثني به عن ذكريات الأيام الماضية. إنَّه ينظر إلى الشبان المائعين الذين يمرون أمامه فيطلق الحسرة تلو الحسرة على تلك الأيام المجيدة التي كان الرجل فيها رجلاً بمعنى

الكلمة وليس هو كرجال هذا الزمان الذين لا يستطيعون أن يذبحوا دجاجة وكل همهم أن يحلقوا شواربهم ويمشطوا شعرهم ثم يتغنجوا كالنساء.

إنَّه يقول في أسف وحرقة «الرجال ماتوا». وهو يعني بالرجال أولئك الذين كانت قلوبهم عامرة بالنخوة والرجولة، إذ هم لا يسمعون صوت الاستغاثة من صديق لهم حتى يشهروا خناجرهم معه دون أن يسألوه عن السبب. إنَّهم كما قال الشاعر البدوي القديم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

وروى لي صاحبي عن رجال ذلك الزمان أنَّ جماعة منهم سطوا ذات ليلة على بيت وأخذوا يجمعون منه الأواني وبعض الأثاث. فأحست بهم أم البيت وهي خائفة فأيقظت ولدها قائلة له: قم ساعد أخوالك على حمل ما سرقوا. وسمع رئيس اللصوص قولها فأمرهم أن يتركوا السرقة من هذه المرأة. إنَّهم صاروا إخوتها وأخوال ولدها، وليس من الجائز في شرعة الرجولة والفروسية أن ينهب الرجل أخته وأبناء أخته...

تلك هي أخلاق الرجال في تلك الأيام! وها هو ما قاله لي صاحبي في تمجيد الرجال الماضين. إنَّه يذكر شهامتهم وينسى أنَّهم لصوص. ولعلَّه يرى اللصوصية من مفاخرهم أيضاً، إذ هي تدلُّ على الشجاعة وشدة البأس. والجبان هو الذي لا يستطيع أن يسرق أو يسطو على البيوت.

الأخلاق في وضعها الأخير:

ذلك ما كان عليه وضع الأخلاق في المدن العراقية قبل الحرب العالمية الأولى يوم كان العراق رازحاً تحت وطأة الحكم العثماني. ولست أنكر إنَّ هذا الوضع بدأ يتغير بتأثير الظروف الجديدة. ولكن الذي يجب أن أعترف به أيضاً أنَّ بقية من القيم القديمة لا تزال مشهودة هنا وهناك لا سيَّما في المناطق التي لم تتأثر بالظروف الجديدة تأثراً كبيراً. وهذا أمر ليس من السهل غض النظر عنه. والقيم الاجتماعية بوجه عام لا يمكن أن تزول من قلوب الناس فجأة. إنَّها متغلغلة في أعماق اللاشعور، وهي تصر على الصمود هناك زمناً طويلاً حيث تؤثر في توجيه السلوك على الرغم من تبدل الظروف الملائمة لها.

والذي يتجول اليوم في المحلات القديمة من المدن العراقية يجد الناس لا يزالون يتفاخرون ويتنابزون على نمط ما اعتادوا عليه في زمن مضى. ولا تزال المقاهي عامرة بروادها وهم يتحدثون عن السبع والمخنث وعن الغالب والمغلوب بشكل لا يختلف في أساسه عن حديث أهل البادية.

ونراهم يتمسكون بعقيدتهم الدينية تمسكاً شديداً، ويقدسون الأنبياء والأولياء تقديساً لا حد له. وهم قد يعتدون على من يشك في صحة عقيدتهم أو يستهين بالأنبياء والأولياء. ولكنَّهم في الوقت ذاته لا يحترمون من يقتدي في أخلاقه بسيرة الأنبياء والأولياء. ولو فرضنا أنَّ رجلاً منهم أراد أن يلتزم بتعاليم الأنبياء فيرد الأذى بالعفو والسيِّئة بالحسنة لعدوا ذلك منه خنوثة وضعفاً، ورمقوه بنظرات الاحتقار.

وتجد أحدهم يُظهر الخشوع والتقوى ويذرف الدموع حين يحدثه الواعظون عن مخافة الله. ولكنَّه لا يكاد يجتمع إلى أقرانه حتى يأخذ بالحديث عن غزاوته وفتكاته وكيف غلب فلاناً أو خدع فلاناً أو «كسر» عين فلان. وهو يضحك عند ذلك بملء شدقيه فخاراً.

إنَّهم لا يسألون عن الفائدة العملية التي يجنيها الرجل ممَّا فعل. المهم عندهم أن يكون غالباً على أية صورة. فذلك في نظرهم من معالم الرجولة فيه. وتتضح هذه النزعة فيهم في مسألة الانحراف الجنسي. فقد شهدنا في الغرب أنَّ الناس هناك يعاملون المنحرف جنسياً بشيء من العطف باعتباره مريضاً يحتاج إلى علاج. وهم لا يفرقون في ذلك بين المنحرف السلبي أو المنحرف الإيجابي. والمعروف في بعض الأُمم الراقية إنَّهم يستنكرون الانحراف الإيجابي أكثر ممَّا يستنكرون الانحراف السلبي، حيث يعدون الأول منهم سبباً والثاني نتجية.

أما عند أصحابنا فهم ينظرون في هذا الأمر على عكس ما ينظر فيه أولئك. فهم يحتقرون المنحرف السلبي كل الاحتقار بينما هم ينظرون إلى المنحرف الإيجابي بعين الاحترام أحياناً. إنَّه حسب مفاهيمهم غالب. والويل كل الويل لمن كان في هذا المجال مغلوباً إذ هو يبقى في عرفهم «مكسور العين» تجاه غالبيتهم فلا يجرأ أن يرفع عينه عليهم أمداً طويلاً.

وهم ينظرون إلى الزنى بمثل هذه النظرة المزدوجة.

فمن الفخار للرجل أن يكون زانياً بنساء غيره. ومن العار عليه أن تكون إحدى نسائه مزنياً بها. ويقع عبء ذلك على المرأة في معظم الأحيان. فقد ورث الناس من البادية أمر احتقار المرأة وعادة قتلها عند الاشتباه بسلوكها. ولكنَّهم تركوا ما كان عليه البدو من شهامة وعفة وإباء. ولهذا أصبح قتل المرأة في العراق ظاهرة اجتماعية تلفت النظر. ولا يكاد يمر يوم دون أن تسمع عن رجل قتل إحدى قريباته غسلاً للعار ثم سلم إلى الشرطة خنجره الملطخ بالدم.

خلاصة الأمر على أيٍّ حال أنَّ الأخلاق في العراق لا تزال تحمل في ثناياها بعض قيم البداوة في احترام الغالب واحتقار المغلوب. ولكنَّها قيم ممسوخة حيث خرجت من محيطها الأول وفقدت وظيفتها الاجتماعية. إنَّما بقيت توجه السلوك كالعقدة النفسية من غير أن يكون هدف لها يلائم محيطها الجديد.

ملاحظات ختامية:

يجب عليَّ قبل أن أختم البحث أن أورد بعض الملاحظات التي أراها ضرورية له، وهي أربع:

الملاحظة الأولى: إنِّي كما قلت سابقاً قد حصرت الموضوع ضمن إطار الصراع بين البداوة والحضارة. وممَّا يجدر ذكره. إنَّ هذا الإطار لا يستوعب جميع الضائع من الموارد الخلقية. فهناك نواح أُخرى منه لعلَّها أهم ممَّا ذكرته. ولكن مقصدي من هذا التركيز أو الحصر هو لفت النظر إلى ناحية وجدتها مهملة لدى كثير من إخواني الباحثين الاجتماعيين في البلاد العربية. **وأتمنى أن تتاح الفرصة لي أو لغيري فندرس الضائع من الأخلاق العربية من حيث صلتها بصراع الأديان والمبادىء أو من حيث صلتها بالمدنية الغربية التي أخذت تتغلغل في العالم العربي وتؤثر في مختلف شؤونه الاجتماعية.**

الملاحظة الثانية: إنَّ بحثي هذا يمثل الجانب القائم من أخلاقنا. ولعلَّه لا يخلو من مبالغة أو غلو. وعذري في ذلك أنِّي مكلف من قبل هيئة الدراسات العربية أن أدرس الضائع من الموارد الخلقية. ولو كنت مكلفاً بدراسة غير الضائع منها لربَّما كان بحثي على غير هذا الذي رأيتم. وهناك ناحية أُخرى أود أن ألفت أنظاركم إليها هي أنَّ زمان الغرور القومي قد ولَّى وحلَّ محله زمان الفحص عن الأدواء الاجتماعية

والتحري عن الحقائق مهما كانت مرة. **ومن الضار بنا أن نبقى نمدح أنفسنا ونعد قومنا خير الأقوام وأخلاقنا أحسن الأخلاق.** وحين نطلع على ما يكتب الباحثون الغربيون عن معائب مجتمعهم والضائع من أخلاقهم لوجدناهم يأتون منها بأفظع ممَّا جئت به. والمجتمع الذي ينكر وجود مرض فيه هو كالمسلول الذي ينخر المرض في رئته وهو يأبى أن يستمع إلى ما ينصحه به الطبيب.

الملاحظة الثالثة: أنِّي ركزت بحثي في المجتمع العراقي وحده. وأخشى أن يغضب منِّي إخواني أهل العراق، ويخيل لي أنَّ بعضهم سيسمعون بخبر هذه المحاضرة فيقولون عنِّي إنِّي تعمدت فضح العراق أمام البلاد الأُخرى. وليس من العسير أن أتصور أحدهم يقول لي: «لقد فضحتنا يا أخي!».

الواقع أنِّي أعتز بالعراق وأتشرف بانتسابي إليه. ولكني مع ذلك أتبع في بحوثي المبدأ الصوفي القائل: «اللهم افضحنا ولا تسترنا» وغاية أملي أن يسير الباحثون الاجتماعيون في البلاد العربية الأُخرى على هذا المبدأ فيعمدوا إلى فضح قومهم أمام الناس دون

حياء، ولا حياء في العلم. ولست أشك أنَّنا لو درسنا أحوال البلاد العربية الأُخرى لوجدنا فيها من الفضائح والأدواء الاجتماعية ما لا يقل عن تلك التي شهدناها في العراق على وجه من الوجوه.

الملاحظة الرابعة: أنِّي خصصت بحثي في وصف الداء دون أن أصف الدواء. وفي رأيي أنَّنا ما دمنا قد عرفنا على وجه التقريب الأسباب التي أدَّت إلى ظهور الداء من المسؤولية في هذا الصدد يقع على عاتق الحكومة، إذ هي تستطيع أن تضع الخطة الرصينة التي تجعل الناس ينسون تراثهم البدوي وينهمكون في اقتباس القيم الجديدة التي تقوم عليها اليوم الحضارة العالمية.

إنَّها تستطيع مثلاً أن تقضي على الاقطاع في الريف وتنشر فيه الملكية الصغيرة وتمنع عنه أذى المرابين عن طريق الجمعيات التعاونية والتسليف الزراعي، بحيث تجعل الفرد الريفي يحس بأنَّ نزعة الاستحواذ والغلبة التي ورثها من الماضي لا تجديه في الحياة شيئاً، وأنَّ الاهتمام بالانتاج واكتساب الأخلاق الملائمة له هو السبيل الوحيد الذي يؤدِّي به إلى النجاح والكرامة.

يحدثنا الأستاذ حليم نجار في كتابه «تراثنا الاجتماعي وأثره في الزراعة» عن قرية صغيرة قرب معرة النعمان في سوريا أنَّ الفلاحين فيها يملكون الأرض ويستغلونها لأنفسهم، أي إنَّ الملكية الصغيرة شائعة فيها، بينما القرى المجاورة لها تعيش تحت نظام الاقطاع. يقول الأستاذ نجار إنَّ أخلاق تلك القرية تستلفت النظر حيث يتصف أهلها بعزة النفس وكرم الخلق وصدق المعاملة بالإضافة إلى النشاط والمثابرة والطموح. أمَّا سكان القرى المجاورة الذين لا يختلفون في دينهم أو علمهم أو جنسهم عن أهل تلك القرية فأخلاقهم تناقض تلك التي ذكرناها.

إنَّنا لا نستطيع إصلاح أخلاق الناس عن طريق المواعظ والنصائح على منوال ما كان القدماء يفعلون قديماً. الأخلاق وليدة الظروف الاجتماعية التي تحيط بها. وما لم تتغير تلك الظروف فإنَّنا لا نأمل أن تتغير الأخلاق كما نهوى. وبهذا يصدق قول القائل: «غير معيشة المرء تتغير أخلاقه».

هذا الكتاب

قد يصح القول بأنَّ كل ثقافة بشرية تتخذ لنفسها نظاماً في الأخلاق خاصاً بها، وهي تنظر إلى أخلاق الآخرين بشيء من الريبة والاحتقار.

ولهذا وجب علينا قبل البحث في الضائع من الأخلاق العربية أن نعرف ما هو الأساس الذي تبني عليه البحث. إنَّنا بعبارة أُخرى يجب أن نعرف ما هي الأخلاق قبل أن نعرف ما هو الضائع منها.

وفي سبيل اتخاذ ركيزة استند عليها في طرق هذا الموضوع سأحاول المقارنة بين أخلاق البداوة والحضارة. ولي سبب يدعوني إلى ذلك، حيث وجدت أنَّ المجتمع العربي قد اختص من بين كثير من المجتمعات الأُخرى بكونه شديد الصلة بالبداوة من ناحية وكونه موطن أعرق الحضارات في التاريخ من الناحية الأُخرى.

ISBN 1-900700-74-3
9 781900 700740

دار الوراق للنشر

Alwarrak Publishing Ltd.